الفصل التاسع

أمثلة على التدريب

الهجوم المرتد

أثناء إسداء زوجتي النصيحة لأمّ شابة، تكشّف أمامي مشهد عجيب أشد العجب. فشل أحد طفليها (في عمر الثانية) في لفت انتباهها، فالتقط مفتاحاً بلاستيكياً لربط الصواميل وبدأ يدقّ به ذراع أمّه، وكان بين الحين والآخر يقفز إلى أعلى و« ينغزها » في وجهها. وهذا السلوك لم يكن جديداً، لأننا لاحظنا ذلك الولد يرتكب أعمال العنف هذه في حق أخيه الأصغر وأيضا في حق أمّه. ففي اليوم السابق شاهدته زوجتي يأخذ درّاجته ويلقيها بعنف على قدم أمّه. فصرخت الأم: « يا جوني (بدّلنا الاسم)، هذا يوجعني ». ثم قالت له بصوت يشبه الأنين: « لا توجع أمك ». فإذا به يلقي بالدّرّاجة على قدمها ثانية. فقالت له: « كُفّ عن ذلك. هذا موجع! » دعوني أخبركم بما يوجع حقاً: أن ترى أمّاً تسيء إلى ولدها بعدم عمل أي شيء لإيقافه في حين تجعله ردودُ أفعالها مجرماً.

إلاّ أن النتيجة في هذه المناسبة كانت مختلفة. فلما استمرّ الحديث، سئم جوني من مهاجمة أمّه وانقلب على زوجتي. بعد الضّربة الأولى، وبدون تحويل عينيها من على الأمّ، وبلا أي تغيير في ملامحها، التقطت زوجتي لعبة بلاستيكية مماثلة. ولم يكن

القصد من ذلك المعاملة بالمثل، لكن التدريب. والأمّ هي التي استفادت ممّا حدث أكثر من الكل. فحينما وجّه جوني الصغير الضّربة التالية، ضربته زوجتي ضربة خاطفة تفوق ضربته قوةً. ويا لمفاجأة! ما الذي يشعر به جوني الصغير في ذراعه؟ ألم! وبطريقة ما يرتبط هذا الألم بضربة هذه اللّعبة. فضرب جوني مرة أخرى. فجاءه العقاب سريعاً (هو في الواقع تدريب أكثر منه عقاب). لكن جوني ولد عنيد جداً، فلم يبكِ. إنما سحب ذراعه الموجوعة وفحصها بعناية. وكان يمكن أن ترى الكمبيوتر الصغير يعمل في رأسه. فضرب مرة ثالثة، كما لو كان يختبر نظريته الجديدة، لكن بشدة أقل. لكن الضّربة المرتدة لم تقلّ شدة. اعتقدتُ أنه سيبكي هذه المرة. لكن ذلك لم يحدث. فبعد النظر إلى أمّه، وكأنه يسأل: «ما هذا الشّيء الجديد؟» ضرب زوجتي على ذراعها مرة أخرى، ضربة أضعف. فظننت أنها ستخفف حدة ضربها، وتماثل ضربته الضعيفة. لكن على ما يبدو ضربته زوجتي مرة أخرى بكل ما فيها من قوة ودون إمهال.

لعلك الآن تتساءل ماذا كانت تعمل الأمّ كل هذا الوقت. صدّق أو لا تصدّق: تابعت زوجتي الحديث كما لو أن كل شيء على يرام، وأمّا الأمّ فاستمعت وعلى وجهها علامات استعجاب وذعر خفيف. لكن جوني، الذي يستحق الالتحاق بالقوات الخاصّة لشدة صلابته، أخفى الوجع المرتسم على وجهه بابتسامة مصطنعة. ولدهشتي، عاود ضرب زوجتي ضربة قوتها ربع الضربة الأصلية.

هذه المرة، قامت هي من الأريكة ومالت إلى الخلف لترد على ضربته، وصاحب ذلك صيحة مثل صيحات لاعبي الكاراتيه. كنت أتمنّى لجوني أن يتعلّم درسه بسرعة، وكانت المحادثة قد توقّفت توقعاً للنّتيجة. لكن يبدو أن جوني ينحدر من سلالة محاربين أشداء، لأنّه استمرّ يتبادل الضربات حوالي عشر مرات. من جانب جوني، خفّت حدة الضّربات شيئاً فشيئاً، حتى وجّه لها خبطة خفيفة بعد شيء من التفكير، فتلقّى ضربة قوية وسريعة في المقابل. فارتخى المفتاح البلاستيكي في يده وأخذ يدرس وجه زوجتي. أعتقد أنه تحيّر من نظرتها إذ وجدها هادئة لا تهدّد، وهو المعتاد على الجدال والتهديد. كان قد دُرِّب على توقّع ازدياد العدوانية قبل حدوث المواجهة. أمّا زوجتي فلم تقل له كلمة واحدة، بل حتى لم تكد تنظر ناحيته، وكانت تعلو وجهها ابتسامة ودودة حين تبادلا النظرات.

لكن الولد كان أذكى بكثير مما كنا نتصوّر. فقد تحوّل عن زوجتي، وهزّ كتفيه، وابتسم، ثم فحص ذراعه، ونظر إلى المفتاح الذي لم يزل في يده. رأيت فكرة تخطر على عقله الصغير وأراد أن يجرّبها. فاستدار نحو أمّه ودقّها على ذراعها. فلما فركت ذراعها وصرخت: «جوني، هذا موجع!»، ناولتها زوجتي المفتاح. ولما ضربها جوني مرة ثانية، ردّت الأمّ الشابة الضّربة بشجاعة. ولم يستغرق الأمر مرتين أو ثلاثة مرات حتى تعلّم الدرس إلى الأبد.

والأمّ أيضاً تعلّمت الدّرس: أنه إذا واظبت على ذلك، روّضت جوني عن ميله إلى الشراسة واستعراض العضلات إلى الأبد.

وليكن في علمكم أن استعمال البالغين للمفتاح اللّعبة لم يكن بديلاً للعصا. وهذا لم يكن تأديباً، بل تدريباً. كان الطّفل يضرب باللّعبة بابتهاج. ورغم إحباطه، لم يكن غاضباً أو لئيماً. فلو كان الحال كذلك، لكان علاجه العصا. إنما علّمته الضّربات المرتدة أن ما يعمله مؤلم ومكروه. كما تعلّم أنّ هناك آخرين يقدرون على الضرب أفضل منه. أكثرية الأشقياء الصغار يشفون من شراستهم بمقابلة من هم أشرس منهم. والأطفال يتعلّمون أن لا يمسكوا النحل عند الإمساك بواحدة.

وما يصعب تصديقه بالنسبة إلى البعض أن ذلك اللّقاء حبّب زوجتي إلى جوني الصّغير. ويبدو أنّه يحبّها كثيراً ويطالب بأن تحتضنه كلما جاءت للزيارة. يستريح الأطفال في محضر المسيطرين على عواطفهم، الذين يعرفون معهم أين حدودهم. ومنذ تلك الخبرة وبعد المزيد من المشورة، ظهر تحسن واضح على الأمّ والطّفل.

الثعالب الصغيرة تفسد الكروم

عدنا لتوّنا من تناول العشاء مع بعض جيراننا الأعزاء. هما زوجان شابان لطيفان على عتبة حياتهما العائلية. وهما والدان رحيمان، يهتمان بتربية أطفالهما كما ينبغي، ولا يمكن اتهامهما أبداً

بالإساءة إلى أطفالهما أو إهمالهم. أطفالهما لهم الأولوية. لكن، لما جلسنا للتحدث، تذكّرت مرة ثانية أنّ الأشياء «التّافهة» هي التي تشكّل خُلُق الطّفل.

كان ولدهما ابن الثلاثة أعوام يلعب بيننا بلعبة مطاطية على شكل حيوان من النوع الذي يطفو في البانيو. والظاهر أنّه اكتشف وجود بعض الماء فيه، فحمله إلى المنضدة وبدأ يعصره. فبدأ الماء يسيل من الحيوان على المنضدة الصغيرة، مما أثار ضحك الجميع، وخاصة الولد الصغير. ثم ذهبت الأمّ إلى المطبخ لإحضار المنشفة.

وعندما حاولت مسح الماء، قال لها طفلها الصّغير: «لا»، وحاول أن يمنعها من إزالة بِركة الماء التي صنعها. فأزاحته جانباً دون عناء ومسحت البِركة رغماً عنه. فاعترض في غضب وإحباط، ثم رمى نفسه على الأريكة وبكى. لم يكن البكاء عالياً، ولم تمضِ أكثر من خمس ثوانٍ حتى استدار مرة أخرى وجال ببصره في الحجرة باحثاً عن مصدر آخر للتسلية. ولم يستغرق الموقف أكثر من عشر ثوانٍ.

تابعنا المحادثة بينما بدأ هو أول حلقة في سلسلة من التعديات المتعمّدة. إذ تسلّق المنضدة الصغيرة، وهو أمرٌ ممنوع تماماً، ثم جعل يبحث عن مظاهر أخرى من التّحدّي. بعد حوالي الأمر الخامس، كان يتوقّف ويمضي إلى التعدّي التالي. فاستمرّت المحادثة بدون مقاطعة سوى توبيخ الطفل بين الحين والآخر.

هـذه بـالضبط إحـدى المسـائل الـتي تسـتلزم تدريبـاً وتأديبـاً مركَّـزاً. وتجاهله، كما فعلوا، يعـني التفريـط في الطفـل.

ماذا تعلّم الطّفـل؟ تعلّـم أنّ أمّـه أكـبر منـه وأنـها قـادرة علـى فـرض رغبتـها عليـه. وذلـك سـيجعله يفـرض رغبتـه علـى أخيـه الأصغـر. تعلّـم أيضـاً أنّـه غـير مضطـر إلى ممارسـة ضبـط النفـس. وأي شـيء يُمكّنـه حجمـه مـن تحقيقـه يُعتَبر مباحـاً. الغضـب الـذي تُـرِك يتّقـد في قلبـه قـاده إلى التّمـرّد. ومـع أنّ الوالديـن لم يلاحظـا، إلاّ أن أفعالـه اللاحقـة كـانت نتيجـة لقلبه المُنجّـس.

الرّد الصحيـح

أمّا الرّد الصّحيح فيكون علـى هـذا النحـو:

« جونـي، خـذ هـذه المنشـفة ونظّـف مـا سـكبته مـن مـاء ». فيقـول: « لا، أنـا لا أريـد أن أفعـل ذلـك ». ويسـتمرّ يلعـب في المـاء، دون اهتمـام حقيقـي بالمـاء، منتظـراً لـيرى إذا كـانت أمّـه سـتتركه علـى حريته. هنـاك تمرّد في قلبه، لكنـه يواجـه قـوة متفوّقـة عـن قوتـه، لذلـك يـتردّد. فتقـول ثانيـة: « جونـي، نظّـف المـاء الآن ». (لا يحصـل أطفـالي إلا علـى فرصـة واحـدة.) فـإذا تـتردّد مـرة أخـرى، تلجـأ إلى الخرزانـة. ولا فـرق حينئـذٍ إذا حـاول تفـادي العلقـة فأسـرع بتنظيـف المـاء. ثـم تجلس أمامـه وتقـول: « يـا جونـي، قـد أمرتـك أن تمسـح المـاء، وأنـت تـردّدت، إذن علّـي أن أصفعك كـي لا تـتردّد المـرة القادمـة. ماما تريـد ولدها أن يكـبر ويكـون حكيمـاً مثـل بابـا، لذلـك سأسـاعدك لتتذكّـر أن

تطيع. مِل فوق الكنبة. ضع يديك إلى أسفل ولا تتحرّك كي لا أزيد عدد الضربات».

ثم تعطيه حوالي عشر ضربات متأنية وبطيئة، على ساقيه العاريتين. سيصرخ متألّماً، لكن إذا استمرّ في إظهار تحدّيه فاستدار وحاول الدفاع عن نفسه، أو أظهر غضباً، تنتظر لحظة وتنصحه ثانية ثم تكرر الضرب. عندما يتضح أنه استسلم تماماً، تناوله قماشة وتقول بهدوء: «جوني، نظّف الوساخة». ويجب عليه أن يمسح الماء شاعراً بالندم. من أجل التأكد وتعزيز لحظة الخضوع، إعطِه أمراً آخر. «يا جوني، اذهب إلى هناك وأعِد لعبك كلها إلى مكانها في الصّندوق». أو «يا جوني، التقط كل الملابس الوسخة وضعها في السّلة». بعد ثلاثة أو أربعة أعمال يؤديها بطاعة وإخلاص، لكِ أن تفخري بذكاء هذا المُعين الصغير. وحتى نهاية اليوم، سيكون سعيداً وخاضعاً. سينقلب حاله بشكل لا يمكن تصديقه.

قد شاهدتَ الآن كيف يُبنَى البيت الهادىء وكيف يُربَّى الطفل المطيع والمستقر عاطفياً. إذا أخلصت في الاهتمام بكل مخالفة وداومت على مجازاتها، سواء كانت في الموقف أو العمل، ففي غضون بضعة أيام سيكون عندك طفل مطيع ومبتهج تماماً.

ليس عندي وقت

الآن أنا أعرف بالضبط ما يفكّر فيه بعضكم: «لكنّي فاض بي الكيل. وليس عندي وقت للمراقبة والاحتراس من كل مخالفة». لو

كان عندك واجبات خارج البيت تمنعك من تربية أطفالك كما ينبغي، فلماذا لا تستسهل وتسلّمهم إلى إبليس ليقوم هو بالمهمة.

حتى لو كانت تلك الواجبات نشاطات كنسية. إذا رُزِقت بأطفال، فدعوتك الأولى هي أن تكون والداً لهم. ومن ناحية أخرى، إذا كنت مستَنفذاً ومُجهَداً بسبب الفوضى في بيتك، فأقل ما تفعله هو الأمانة والإخلاص في التأديب، لأنك بحاجة إلى الراحة التي ستنتج عن ذلك.

ليلة أمس، جاءت أمّ شابة لأطفال صغار إلى دارنا وحكت لزوجتي هذه القصّة:

« هذا الصباح، وأنا جالسة على ماكينة الخياطة، جاءني ابني [عمره أربعة أعوام] وقال: « ماما، أنا أحبك كثيراً جداً ». توقفتُ عن الخياطة، ونظرت إلى التعبير الجاد المرتسم على وجهه، وقلت: « أنا مسرورة بأنك تحبني، لأني أحبك أنت أيضاً. أنت ولد حسن ». ولما حاولتُ العودة إلى الخياطة، سألني: « هل تعلمين لماذا أحبكِ بهذا القدر؟ » « لا، لا أعلم لماذا تحبني هكذا؟ » « لأنك تجعلينني أحضر حطب الوقود وأفعل ما تأمرينني به ».

تبدو هذه الأمّ دائما نشيطة ومرتاحة. أنا أعلم أن هذا قد يبدو مبالغاً فيه، لكنها الحقيقة بحذافيرها. حتى ابن الأربع سنوات يمكن أن يقارن نفسه بالأطفال الآخرين ويقدّر توجيه والديه أعلى تقدير.

لسعة العصا عند القيلولة توفر الوقت

عندما يتعب رضيعك ويغالبه النعاس، فيحتدّ ويثور، لا تعزّزي انفعاله بإطالة الوقت وتركه مستيقظاً، بل ساعديه على النوم. لكن ماذا عن الرضيع الزّنّان الذي يفضّل الشكوى على النّوم؟ كوني حازمة معه، فلا تنوّميه ثم تسمحين له بالنهوض بعد ذلك. وإذا نوّمتيه واستيقظ بعد ذلك بقليل، فلا تكافئي شكواه بالسماح له بالنهوض. بل من أجل المواظبة في التّدريب، يجب أن تواصلي ما بدأتيه. وحتى إذا كان غير قادر على النوم، يمكن تدريبه على الرقاد في مكانه بهدوء. وسيتعلم سريعاً أنّ كل مرة يوضع في مهده للنوم، لا بديل له غير البقاء في مكانه. أمّا إذا نهض، فسيعرّض نفسه لِلَسعة العصا. وسيغدو ذلك أسهل من وضع « عروسة قماش » على السّرير. أولئك الذين يواظبون على التأديب معظم الوقت يجب أن يستعملوا العصا أكثر. أمّا أولئك الذين يواظبون دائماً ففي النهاية لا يحتاجون إلى العصا أبداً.

الطفل لا يفكّر ولا يتأمل ما هي أفضل الطّرق لتنفيذ إرادته. إنّما في أول مرة يستاء من الرقاد للنوم، يصدر عنه الأنين (الزّن) تلقائياً. فإذا كافأتي رد فعل الطّفل، يمكنك أن تتوقّعي منه تكرار الزّنّ. فإذا كوفيء الطّفل ثانيةً، يتطوّر الزن إلى « عياط » ونواح ويتعوّد على ذلك. ومثل هذا الرضوخ من جانب الوالدين لمطالب الطّفل يعوّد الطّفل على سوء الأخلاق. وحيث أن هذا الأنين والصّراخ من أجل تنفيذ إرادته يقود في النهاية إلى استياء الأمّ من الطّفل،

فمن الأفضل، بغض النظر عن مشاعر الأمّ، كسر هذا الميل قبل ترسّخه وانقلابه إلى عادة شخصية.

تصوروا طفلاً لا يستجدي ولا يضجّ أو يتوسّل من أجل أي شيء! قد ربّينا خمسة أطفال غير معتادين على النواح أو الزنّ. تصوّري كم يكون مريحاً لو استطعتِ أن تنوّمي أطفالك بمجرد قولك: «حان وقت النوم»، ثم تضطجعين أنت نفسك، عالمةً أنهم سيظلون هادئين في أسِرّتهم عندما تستيقظين.

الطاعة

بينما كانت إحدى الأمهات تقرأ مسودة هذا الكتاب، ظلت تشدها ابنتها بنت الاثني عشر شهراً وهي «تزنّ». وعندما بلغت الأمّ الجزء السابق الخاص بعدم السماح للطفل بالزنّ «إذا أصابهم التعب، ضعيهم في سريرهم.»، قررت أن تطبّق ما قرأته. فأرقدت ابنتها وأمرتها أن تنام. فردّت الطّفلة النّعسانة بالصّراخ والاعتراض. وحسب إرشادات الكتاب، صفعت الأم الطّفلة وأمرتها أن تتوقف عن الصّراخ وتخلد إلى النوم. أمّا الطّفلة فكانت مدرّبة من قبل على قضاء ساعة في صراخ متقطّع ثم تنهض، لتنتهرها أمها وتعيدها ثانيةً إلى النوم. وعلى الرغم من هذا، هدّأت الصّفعة الصّراخ وجعلت البنت ترقد في هدوء. وهكذا واصلت الأمّ قراءتها. وبعد فترة رفعت عينيها ورأت الطّفلة وقد انسلّت بهدوء إلى أرض الغرفة وجعلت تتصفّح كتاباً. ابتسمت الأمّ من هدوء الطّفلة وحسن تصرفها، ثم أكملت قراءتها بدون مقاطعة.

فلما تابعت القراءة، اكتشفت أنّ الطّفلة لم تطِع. وقالت في بالها: « لكنها أحسنت التصرف ولم تضايقني ». ثم أدركت أن المسألة ليست مضايقة الطّفلة لها من عدمها، بل تعلُّمها أن تطيع. فاستنتجت أن بسماحها للطّفلة بالجلوس بهدوء على الأرض بجوار سريرها، حيث سيغالبها النعاس في النهاية، كانت تدرّب الطّفلة فِعلياً على التّمرّد على حكم القانون. وبدافع الحب لطفلتها، أزعجت الأمّ نفسها وقطعت خلوتها الهادئة بصفع الطّفلة وتكرار الأمر بالبقاء في السّرير والخلود إلى النوم. بعد ذلك بساعة استيقظت الطفلة منشرحة.

أم بنت ثلاثة أعوام

قبل أيام في دارنا، كانت بنت صغيرة عمرها ثلاثة أعوام تلعب بالعرائس. (دعوني أوضّح شيئاً هنا: يجب أن تكون جميع عرائس الأطفال على هيئة أطفال، لا على هيئة « باربي ». فالخيال النابع من اللّعب بعرائس على هيئة أطفال رُضّع يجعل الطفلة تمثّل دور الأم. أمّا الخيال النابع من اللعب بعرائس باربي فيجعل الطفلة تمثّل دور إلهة الجنس). « لأَنَّهُ كَمَا شَعَرَ [الطفل] فِي نَفْسِهِ هكَذَا هُوَ » (أمثال ٢٣: ٧). كانت هذه البنت الصّغيرة تلعب دور الأمّ. لكن حتى السنة الماضية، كانت عاصية ومدلّلة. بعد قليل من المشورة، قوّم الوالدان أسلوب تدريبهما وتأديبهما. واليوم هي بنت مثالية، دائماً مطيعة ومبتهجة. لكن المثير للاهتمام هنا هو الدّور الذي تخيّلته مع رضيعها. ففي خيالها، بدأ الرّضيع يصرخ

بعدما أمرته أمراً ما. فوبّخت رضيعها، وقلبته وصفعته على مؤخرته. ثم كلّمته كلام معزّياً ومطمئناً ومدحته على حسن موقفه. وكانت تقلّد نغمة أمّها المُحبّة الحازمة والصبورة.

ولما اختلسنا النظر إلى ما كان يجري، تابعت ممارستها لدور «الأمّ». طرأت عدة مواقف مع رضيعها (المصنوع من القماش) تعاملت معها فوراً بحزم واحتراف كأنها امرأة بالغة. في الحقيقة، حتى أنا لم أكن لأعالج تلك المواقف الخيالية أفضل من ذلك. قالت للطفلة الباكية (العروسة المصنوعة من القماش): «لا! هذا ليس جميلاً. لا يمكن أن تأخذي ذلك الآن. توقّفي عن صراخك. طاخ، طاخ. إذا لم تكفّي عن الصراخ، سأضطر إلى صفعك مجدّداً. طاخ، طاخ، طاخ. حسناً، توقّفي عن الصراخ الآن. ذلك أفضل. والآن حاولي أن تلعبي بسرور».

هذه «أمّ» في عمر الثالثة مستعدّة لتربية أطفال مطيعين سعداء. إنّها تعرف بالضبط ماذا تتوقّع من أمّها. والأعجب من ذلك أنها تعرف بالضبط ما تتوقّعه أمّها منها. لقد أدّبت عروستها الرضيعة على اتجاهات قلبية، لا على أفعال. تكاد هذه البنت الصّغيرة تكون مُنتجاً تام الصنع. لقد أفلح التدريب معها. وطالما حافظ الوالدان بانتظام على ما غرساه، ظلّ الطّفل بركة وعوناً لهما.

«الشحاتون*» ليس لهم أن يختاروا

لا يجب أبدا أن « يوقوق » الطفل ويستجدي (يشحت). هذه عادة يسهل إبطالها. لا تكافئ شحاتا (متسولا)، فينصرف عنك. في بيتنا، أضمن طريقة لعدم الحصول على أمنيتك كانت الاستجداء أو الوقوقة (الزن والأنين). وكنا نتحامل على أنفسنا لكي لا نكافئ استجداء طفل أو توسله. فإذا « عزمنا » الأطفال على شيء ما، وفقد أحدهم صبره فزن أو طلب مرتين، كان يخسر نصيبه بكل تأكيد، حتى إذا تحتم عليه مراقبة الأطفال الآخرين يأكلون الأيس كريم الذي ألح في طلبه. وإذا كنت على وشك التقاط طفل صغير من على الأرض فضج ووقوق لكي ألتقطه، كنت أتركه حتى يلهو بشيء آخر – مع أن ذلك كان يزعجني أنا شخصيا.

ربما تصورت صيحات التظلم والنواح التي قد تعلو في بيتك إذا طبقت مثل هذه القاعدة. بل إن مجرد التفكير فيها يجعلك تشعر بأنك مستبد. لكن إذا واظبت على المحاولة ٩٩٪ فقط، لن ترضى بالنتائج. فإذا استطاع الطفل مرة واحدة الحصول على ما يريد عن طريق الاستجداء أو « الزن »، فسيحاول عشر مرات حتى تفلح المحاولة مرة ثانية. لكن إذا أيقن من أن محاولاته تحقق نتيجة عكسية، فسيسرع بالتوقف عن إهدار طاقته في أنين غير مجد.

* الشحاتون = المتسولون باللهجة المصرية الدارجة (الشحادون بلغة الشام)

عندمـا لا يسـتطيع «الشّـحاتون» أن يختـاروا، فـهم يختـارون أن لا يشـحتوا.

الطريقـة الصعبـة

لمدة عامين بعـد طفلنـا الأول، كـانت زوجـتي عـاجزة عـن الحَبَـل، وعندمـا حبلـت أخـيراً، أجـهضت. وبعـد ثـلاث سـنوات، خـرج إلى الوجـود ابننـا الصّغير الـذي قـد اخترنـا اسمـه قبـل خمـس سـنوات، وكـان أول ولـد! كـانت زوجـتي غيـورة جـداً عليـه. وببلوغـه سـنّ الواحدة، كان قد ارتبط جداً بها حتى أنـني كنـت أضطـر إلى تقديـم طلـب مقدمـاً إذا أردت قضـاء بعـض الوقـت معـها! أمّـا فكـرة إنجـاب المزيد مـن الأطفال فلـم تكـن تـراود خيالنـا والحـال هكـذا. ولم يكـن ممكناً تركه مع جليسة أطفال ما لم تكن صمّـاء. لم أكـن أعـرف الكثـير عـن الأطفال، فاعتقدت أن هـذه مرحلـة عـابرة وسـتأخذ مجراهـا. لكـن صديقاً لنا -أكثر خبرة في الأبـوة- برهـن لنا على عكـس ذلـك.

أظـنّ أنّ هـؤلاء الأصدقـاء قـد تحمّلـوا فـوق طاقتـهم مـن ابننـا الصغير الـذي لم يُقطَـع حبلـه السُّرّي حتـى بعـد بلوغـه عـامين. كـانت زوجـتي عبـدة طائعـة للطّفـل حتـى ذلـك اليـوم المصيري في شـهر أبريل. لا أزال أذكر صديقـي يخطـو نحـو سيارتنا أثنـاء نزولنـا منـها في رحلـة مـع الكنيسـة. وبينمـا اختبـأ المتـآمرون الآخـرون في الخلفيـة، تقـدّم هـو مـن زوجـتي، ومـدّ يديـه، واختطـف منـها جـابريل وقـال: «سـآخذه أنـا الآن» ثـم مضـى.

لم أفهم ماذا يريد بهذا الطفل الصيّاح الرفّاس الميؤوس منه، الذي كان يصارع معه مادّاً يديه نحو أمّه لتنقذه. سدّ المتواطئون معه الطريق خلفه منعاً لحدوث أي عملية إنقاذ. وظننت أن هؤلاء المُضلَّلين سيعيدونه إلينا بعد قليل بعد ندمهم على أخذه.

وبالنسبة إلى زوجتي كان ذلك بمثابة فِطام عن ولدها. بعد ساعتين رجع «المدرّب» ومعه جابريل جديد، يضحك ويتمتّع بصحبة الرّجال. ولم يجرِ إلى أمّه أو يستأنف صراخه.

لدهشتنا، انقطع الحبل السرّي من تلك اللّحظة، وصار لنا ولد جديد عالمه أكبر من حضن أمّه. واستعدتُ أنا زوجتي! الولد القادم كان في الطريق، وحين أتى لم يكن امتداداً لصورة أمه الذاتية.

ودارت العجلات

عندما تجالس زوجتي أطفال غيرنا يُشتَرط دائما حصولها على كامل الحرية للتأديب والتدرّب. نحاول أن نكون واقعيين ونستعمل العقل في تحديد ما يمكن تحقيقه بشكل فعّال في الوقت المخصَّص. ننظر إلى ثقة الطّفل فينا، ومعرفته أو معرفتها بأساليبنا، وحساسية الوالدين وحالة الطّفل العاطفية.

في إحدى المناسبات، كانت ديبي تراعي مجموعة مختلطة من الأطفال والرضَّع، جميعهم من أربع أُسِر مختلفة تحضر حلقة دراسية. ومن بينهم أول طفل لزوجين، عمره خمسة عشر شهراً، أفرطوا في تدليله بدرجة ملحوظة. إذ اعتاد على تطييب الخاطر

وتلبية الاحتياجات بصفة مستمرة. نتيجة لذلك، كان أكثر الأطفال تسلّطاً وإلحاحاً. افتقد أمّه «الخادمة»، فجعل يتظلّم، لا تظلم الحزين الشاعر بالوحدة المفتقد للحب، بل كان ثائراً هائجاً لأن الأمور لا تمشي على هواه، وكأنه يسأل: «أين أخذتم أمي؟ سأجعل كل واحد فيكم يدفع ثمن هذه المعاملة. وسأفعل ما في وسعي لأجعلها أسوأ ليلة في حياتكم».

كنا قد أجلسنا الأطفال حول المائدة من أجل تناول وجبة خفيفة. وبعد دقيقتين، بدأ صاحبنا الصّغير «يتْقِمِص». لم تعجبه الأكلة ولا الصُّحبة. فنزل وبدأ يتذمّر. تساهلنا معه أكثر من تساهلنا مع أولادنا، وأعطته زوجتي رقاقة بطاطس أعجبه طعمها من قبل. لكنه أصرّ على موقفه، ورماها بتحدٍّ على الأرض.

فما كان من زوجتي الصّبورة، التي كانت مشغولة جداً أيضاً، سوى أن رفعته ووضعته في كرسي ناعم كبير، وسلّمته مزلجة ملوّنة بألوان زاهية. وقضت معه لحظة تشرح له كيف يقلبها رأساً على عقب ويدوّر عجلاتها على سبيل التسلية، وتقول له: «دوِّر العجلات هكذا». فأدار وجهه بعيداً عنها في تحدٍّ. قد نمّى هذا الطّفل (أو بالأحرى نمّى والداه فيه) روحاً أنانياً وعاصياً. وإذا تُرِك على هواه، لـ«أخجل أُمَّهُ». زوجتي مغرمة بهذا الطّفل على نحو خاص، وآلمها أن تراه وقد تعوّد على مسلك سيّيء كهذا.

لذلك قرّرت أن وقت المواجهة قد حان. فتجاهلت الأطفال الآخرين، الذين كانوا يستكشفون ويعيدون ترتيب كل شيء على

المنضـدة في سـرور، وأسـرعت بإحضـار عصاهـا (طولهـا ثلاثـون سنتيمتراً وقطرها أقل من نصف السنتيمتر). ثـم وضعـت المزلجـة ثانيـةً أمامـه وقـالت لـه بلطافـة ومداعبـة: « دوِّر العجلـة ». فـأدار رأسـه بعيـداً بجموح وصار يَزِنّ. فبيّنت له مرة أخرى كيـف يستمتع بـإدارة العجلـة وكرّرت الأمر. فلم تلقَ منه سوى التحـدي.

هذه المرة، بعدما تـأكّدت بأنـه فـهم الأمـر واستوعبه، وضعـت يـده على العجلات، مكرّرةً الأمر، وعندما لم يلـبِّ الأمـر، لسعته بالعصا علـى ساقه. ومرة أخرى أمرتـه بصوت لطيـف، لكنّـه حـازم، أن يديـر العجلـة. أمّـا هـو فاستمات في عنـاده. لذلـك أحضـرت الأطفـال الآخريـن لتشرح لهم كيف يسلّون أنفسهم بـإدارة العجلـة. أمّـا هـو فسحب يـده بعيـداً مـن المزلجـة، وغطّـى يـده اليمنـى باليسـرى - الظـاهر أنـه أراد التعبير عـن تصميمـه.

بعـد حوالـي عشر مـرات مـن التّحـدي العنيـد، الـتي تلتـها عشـر لسعات، خضعـت إرادتـه لإرادة الأعلـى منـه. لأنـه حـين دوّر العجلـة، صنـع كـل مـا يجـب أن يصنعـه الإنسـان المسـؤول: أن يُخضِـع ذاتـه للأعلـى منـه ويعـترف بـأنّ اهتماماتـه ليسـت العظمـى. وبعـد إدارتـه العجلات مرة واحـدة، التفتـت زوجـتي إلى أشغالها الأخـرى.

بعد بضعـة دقـائق، لاحظـتْ أنـه كـان يديـر العجـلات ويضحـك مـع الأطفـال الآخريـن الذيـن كـان يـزدري بـهم مـن قبـل. ذهـب سـلوكه الفظّ بلا رجعة، وجاء مكانـه اقتنـاع وشـكر، وصـار يخـالط رفقـاءه. لقـد

حقّقت « العصا » وعدها الكتابي، وعندما أُخبِر الوالدان بالتّحوّل الذي جرى، شدّدوا برنامجهما التدريبي.